خلفاء صلاح الدين ودورهم السياسي والعسكري

إعداد طالب الدكتوراه: باسل كاسوحة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية_ جامعة تشرين

الدكتورة المشرفة: أ. د. م. شيرين حمودي

الدكتورة المشاركة: أ. د. م. وفاء صارم

الملخص باللغة العربية

استطاع صلاح الدين الأيوبي توحيد البلاد وتأسيس دولة مترامية الأطراف، وتحرير معظم المناطق الخاضعة لسيطرة الصليبين، لكن بعد وفاتهِ لم يستطع أحد من أبنائهِ السبعة عشر أو أخوتهِ ملئ الفراغ الذي تركهُ صلاح الدين، مما عرض الدولة الأيوبية لخطر الانقسام وعودة النشاط الصليبي استغلالاً لانقسام الأيوبيين.

فسرعان ما نشب الصراع على السلطة بين أبناء البيت الأيوبي واستطاع الملك العادل سيف الدين أبو بكر من التسوية بين أبناء صلاح الدين السلطان الأفضل نور الدين علي والملك العزيز عثمان، وفي عهد السلطان العزيز عثمان استطاع الصليبيون من استعادة بيوت، أما في عهد السلطان المنصور محمد بن عثمان عاد الصراع بين أفراد البليت الأيوبي حتى استطاع السلطان العادل أبي بكر من استلام السلطة ومواجهة الحملة الصليبية الرابعة والحملة الصليبية الخامسة، أما السلطان الكامل محمد واجه الحملة الصليبية السادسة، في حين جاء مرض السلطان الصالح نجم الدين أيوب مرافق للحملة الصليبية السابعة على مصر ليظهر دور المماليك العسكري والسياسي في مواجهة الصليبين والقضاء فيما بعد على حكم السلطان تورانشاه وبداية عصر المماليك فيما بعد.

الكلمات المفتاحية: الأيوبيين، الصليبيين، المماليك، مصر، الشام.

The successors of Salah al-Din and their political and military role

The summary is in English

Salah al-Din was able to unite the country, establish a vast state, and liberate most of the areas under the control of the Crusaders, but after his death none of his seventeen sons or brothers could fill the void left by Salah al-Din, which exposed the Ayyubid state to the danger of division and the return of Crusader activity to exploit the division of the Ayyubids.

Soon, a struggle for power erupted between the sons of the Ayyubid house, and the just king, Saif al-Din Abu Bakr, was able to settle between the sons of Salah al-Din, the best sultan Nur al-Din Ali and the dear king Othman. Othman returned the conflict between the members of the Ayyubid pallet until Sultan Al-Adil Abi Bakr was able to take power and confront the Fourth Crusade and the Fifth Crusade. As for Sultan Al-Kamel Muhammad faced the Sixth Crusade, while the illness of Sultan Al-Salih Najm Al-Din Ayyub accompanied the Seventh Crusade against Egypt to show the role of The military and political Mamluks in the face of the Crusaders and the subsequent elimination of the rule of Sultan Turanshah and the beginning of the Mamluk era later.

Keywords: the Ayyubids, the Crusaders, the Mamluks, Egypt, the Levant.

مقدمة:

استطاع صلاح الدين توحيد البلاد وتأسيس دولة مترامية الأطراف، وتحرير معظم المناطق الخاضعة لسيطرة الصليبين، لكن بعد وفاته لم يستطع أحد من أبنائه السبعة عشر أو إخوته ملء الفراغ الذي تركهُ صلاح الدين، مما عرض الدولة الأيوبية لخطر الانقسام، وعودة النشاط الصليبي استغلالاً لانقسام الأيوبيين. ففي الدور الأول من تأسيس الدولة وتوحيد البلاد اعتمد صلاح الدين على إخوتهِ وأبناء عمهِ في توطيدِ سلطانهِ، فمنحهم إدارة الولايات الرئيسية، ولكنهُ سرعان ما غير ذلك، فجعل لأبنائهِ المكانة الأولى، وأعطاهم الولايات الأكثر أهمية، أما إخوتهِ وأقاربهِ فكان نصيبهم المناصب الثانوية، وربما يعود ذلك إلى دافع الأبوة أو حماية أولاده من طمعِ أقربائه.

مشكلة البحث وأهميتهُ والجديد فيه:

يطرح هذا البحث إشكاليات عدة، من أهمها: ما هو دور خلفاء صلاح الدين السياسي والعسكري؟ كيف تقاسم خلفاء صلاح الدين السلة السياسية؟ كيف تمكنوا من مواجهة الأخطار الخارجية؟ كيف أثر انقسام البيت الأيوبي على مواجهة الصليبين والمشكلات الداخلية؟ كيف انتهت الدولة الأيوبية لتبدأ دولة المماليك؟

وتكمن أهمية هذا البحث في كونهِ يقدم مادة علمية جديدة عن أخطر فترة عاشتها الأمة العربية الاسلامية وخصوصاً بعد انتصار صلاح الدين الأيوبي في حطين، وعن انقسامات البيت الواحد، وعن المشكلات الداخلية، وعن الاعتماد على عنصر بشري عُرفَ بالمماليك ليأخذوا دوراً سياسياً وعسكرياً، أدى هذا الدور للقضاء على آخر سلاطين بني أيوب.

أهداف البحث:

إثبات دور خلفاء صلاح الدين الأيوبي، السياسي والعسكري، وكيفية مواجهة الخطر الصليبيين على الرغم من خلافات البيت الأيوبي حول السلطة، وكيفة استطاعتهم من مواجهة الحملات الصليبية لرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، والتي أدت الى انهاء البحكم الأيوبي.

فرضيات البحث وحدودهِ:

حدود البحث الجغرافية تشمل منطقة المشرق عامةً، ومصر خاصةً لأنها مركز البلاد ومركز السلطان ومقر لمماليكه الخاصة بهِ، كذلك بلاد الشام لأنها مركز الصراع بين أفراد البيت الأيوبي، والصراع مع الصليبين.

الإطار النظري والدراسات السابقة:

لقد سبق التطرق لهذا الموضوع من قبل عدد من الباحثين في كتب ودراسات تتحدث عن صلاح الدين وعن الدولة الأيوبية بشكل عام، وليس عن خلفاء صلاح الدين، وتمت العودة إلى تلك الكتب للاستفادة من المعلومات والأفكار التي تحتويها والاضافة عليها والتعمق أكثر بدراسة تفاصيلها، ومن هذه الأبحاث:

1- **الحميري (محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، ت 900هـ / 1495م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، ط2، 1984م.**
2- **ابن شداد (عز الدين محمود علي بن إبراهيم، ت 684هـ / 1285م): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تح: يحيى زكريا عبارة، 3 أجزاء، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1991م.**
3- **أبو شامة (عبد الحمن بن إسماعيل، ت 665هـ / 1267م): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: محمد حلمى محمد أحمد، مر: محمد مصطفى زيادة، 2 جزء، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ط2، 1998م.**
4- **ابن العميد (المكين جرجس، ت 671هـ / 1273م): أخبار الأيوبيين، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، 2010م.**
5- **أبو الفدا (إسماعيل بن علي، ت 732هـ / 1332م): التبر المسبوك في تواريخ الملوك، تح: محمد زينهم محمد عزب، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 1995م.**

منهج البحث وإجرائتهِ:

لقد تم الاعتماد في هذا البحث على منهج استقراء وتحليل النصوص التاريخية المستقاة من مصادر مختلفة واستنتاج المعلومات الخاصة بالبحث.

أما عن التوزيع الإداري فكان كالآتي: أبناء صلاح الدين الملك الأفضل نور الدين علي بدمشق مركزاً لدويلة تشتمل على الساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس حتى الحدود المصرية، أما الابن الثاني لصلاح الدين وهو الملك العزيز عماد الدين عثمان فاحتفظ بمصر (567_595هـ / 1172_1198م)، في حين أخذ الابن الثالث لصلاح الدين وهو الملك الظاهر غازي حلب وشمال الشام، أما الملك العادل سيف الدين أبو بكر _أخ صلاح الدين_ فقد أخذ الكرك والشوبك، إضافة للجزيرة وديار بكر[1]، ولكنها إقطاعات ثانوية متفرقة منحهُ إياها صلاح الدين، وهي لا تتناسب مع شخصية العادل[2]، أما بقية أبناء وأخوة صلاح الدين وأقربائه، فكانت لهم إقطاعات ثانوية صغيرة، مثل الملك الظافر مظفر الدين خضر بن صلاح الدين (568_627هـ /

1- ديار بكر: هي بلاد واسعة حدها غرب دجلة الى بلاد الجبل المطل على نصيبين، ومنها حصن كيفا وآمد وميافارقين. الحموي (ياقوت بن عبد الله، ت 626هـ / 1229م): معجم البلدان، 5 أجزاء، بيروت، دار صادر، 1977م، ج2، ص494

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تح: محمد يوسف الدقاق، 11 مجلد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1987م، مجلد10، ص226_227؛ ابن كثير (إسماعيل بن عمر، ت 774هـ / 1372م): البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، 21 جزء، القاهرة، دار هجر، ط1، 1998م، ج16، ص658_659؛ العريني (السيد الباز): المماليك، بيروت، دار النهضة العربية، 1967م، ص35؛ قلعجي (قدري): صلاح الدين الأيوبي، بيروت، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، ط1، 1992م ، ص309،471؛ سيمينوفا (ليديا): صلاح الدين والمماليك في مصر، تر: حسن بيومي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 1998م، ص32؛ هاملتون (السير. آ. رجب): صلاح الدين الأيوبي، تر: يوسف ايبش، بيروت، بيسان للنشر والإعلام، ط2، 1996م، ص202.

1173_1230م) عُيْنَ على بصرى[1] وحوران[2]، والملك الأمجد بهرام شاه بن فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب (558_627هـ / 1163_1230م) على بعلبك[3]، والمجاهد أسد الدين شيركوه الثاني (الصغير) (569_637هـ / 1174_1240م) ابن أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين فتسلم حمص، والمنصور الأول محمد بن تقي الدين عمر (587_617هـ / 1191_1220م) عين في حماة، هذا في حين أخذ الملك المعز سيف الإسلام طغتكين الأخ الرابع لصلاح الدين اليمن وجزيرة العرب[4].

إضافةً لذلك استمر أبناء البيوت القديمة الحاكمة في الجزيرة، مثل البيت الزنكي ممثلاً في عز الدين مسعود الأول ابن مودود أتابك الموصل[5] (576_589هـ /

1- بصرى: الشام من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران مشهورة عند العرب قديماً. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص441.

2- حوران: جبل بالشام من أعمال دمشق ومدينتها بصرى، وفي شرقي هذه المدينة تجتمع مياه دمشق وتسير في صحراء مقدار خمسة عشر فرسخاً فتدخل دمشق. الحميري (محمد بن عبد الله بن عبد المنعم ت 900هـ / 1495م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، ط2، 1984م، ص206.

3- بعلبك: مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص453.

4- ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص659؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص471_472؛ عاشور (سعيد): الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة، دار النهضة العربية، 1996م، ص74؛ هاملتون: صلاح الدين الأيوبي، ص203.

5- الموصل: في الجانب الغربي من دجلة وسميت بهذا الاسم لأنها وصلت بين الفرات ودجلة، وشرب أهلها من ماء دجلة وفي أعلى البلدة قلعة عظيمة قد رص بناؤها رصاً وفي المدينة مدارس للعلم. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص563.

1180_1193م)، وأخيه عماد الدين الزنكي الثاني ابن مودود أتابك سنجار[1] (566_594هـ / 1170_1197م)، والبيت الآرتقي[2] ممثلاً في قطب الدين سقمان الثاني صاحب كيفا[3] وآمد[4]، وعماد الدين أبي بكر صاحب خرتبرت[5]، وهكذا كانت موزعة القوى والسلطة في الجبهة الإسلامية عند وفاة صلاح الدين[6].

1_ السلطان الأفضل نور الدين علي (589_592هـ / 1193_1196م):

بعد وفاة صلاح الدين سرعان ما نشب صراعاً على السلطة بين أبناء البيت الأيوبي. ذلك أن صلاح الدين أوصى لابنه حاكم دمشق الملك الأفضل علي بالسلطة من بعده، على أن تكون له السلطة العليا على سائر أنحاء الدولة الأيوبية، ولكن الملك

1- سنجار: هي برية الثرثارة، ومدينتها الحضر، وهي كلها من الجزيرة، وفي سنجار فوهة نهر الخابور، ويمر بها حتى يصب في الفرات. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص326.

2- البيت الأرتقي: من الأسر الحاكمة ترجع في نسبها الى أرتق بن أتسز، مؤسس دولة بني أرتق، تشعبت دويلتهم فحكمت حصن كيفا وآمد وخرتبرت وماردين. ابن شداد (عز الدين محمود علي بن إبراهيم، ت 684هـ / 1285م): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تح: يحيى زكريا عبارة، 3 أجزاء، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1991م، ج1، ق2، ص85.

3- كيفا: أظنها أرمينية، وهي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص265.

4- آمد: هي أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدر أو أشهرها ذكراً، وهي بلد قديم حصين مبني بالحجارة السود. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص56.

5- خرتبرت: وهو الحصن المعروف بحصن زياد الذي يجيء في أخبار بني حمدان في في أقصى ديار بكر حتى بلاد الروم، بينه وبين ملطية مسيرة يومين وبينهما الفرات. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص355.

6- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص228؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص472؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص75.

الأفضل علي لم يكن بالشخص المناسب لتلك المهمة الكبيرة، نظراً لما اتصف به من ضعف وسوء سيرة، حتى وصفهُ المؤرخون بأنهُ أقبل على اللعب ليله ونهاره واهتم بلذاته[1]، وقام باستبعاد أمراء والده ومستشاريه، ووضع كل ثقته في وزير جديد ضياء الدين بن الأثير، فكانت ردةُ فعلهم الهرب إلى الملك العزيز عثمان بمصر، وحرضوه على أخيه، فخرج الملك العزيز عثمان من مصر في صيف سنة (590هـ / 1194م)، قاصداً دمشق، وحاصرهُ فيها، مما دفع الأفضل للاستنجاد بعمهِ الملك العادل سيف الدين أبو بكر[2]، وهنا ظهر دور الملك العادل سيف الدين أبو بكر ليأخذ مكانهُ المناسب، وقد وصفتهُ المصادر التاريخية، بأنهُ كان "ذا مكر وخديعة، صبوراً ذا أناة"[3]، وفعلاً تصرف الملك العادل سيف الدين أبو بكر بكل حكمة وتأني، فلم يفرض نفسهُ حاكماً بل فرض وجوُدهُ، حيث استجاب لنداء السلطان الأفضل علي، والتقى بجميع أمراء وملوك الأيوبيين، واتفق الجميع على منع الملك العزيز عثمان من الاستيلاء على دمشق، وعندئذ أدرك الملك العزيز عثمان أن لا قدرة لهُ على مقاومة أولئك الأمراء جميعاً، فانصرف عائداً إلى مصر[4].

1- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبي المحاسن يوسف، ت 874هـ / 1469م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح: محمد حسين شمس الدين، 16 جزء، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1992م، ج6، ص120؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص75.

2- ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص662_663؛ المقريزي (أحمد بن علي، ت 845هـ / 1441م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تح: محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، 3 جزء، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط1، 1998م، ج3، ص118؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص473؛ هاملتون: صلاح الدين الأيوبي، ص206.

3- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص76.

4- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص234.

فكانت التسوية التي أزالت التوتر بين الأخوة وأعادت العزيز إلى مصر في (رجب سنة 590هـ / تموز 1194م)، فقد قضت بأن يحتفظ السلطان الأفضل علي بدمشق وطبرية[1] وأعمال الغور، في حين يأخذ الملك العزيز عثمان بيت المقدس وما يجاورهُ من أعمال فلسطين، ويأخذ الظاهر غازي جبلة[2] واللاذقية، إضافة للأراضي التي يحكمونها[3].

لكن سرعان ما عادت الأمور إلى سابق عهدها، فقد تمادى السلطان الأفضل علي في لذاتهِ ولهوهِ، في الوقت الذي عاد فيه الملك العزيز عثمان إلى أطماعهِ، فخرجَ من مصر قاصداً دمشق، استنجد السلطان الأفضل علي بعمهِ الملك العادل أبي بكر، الذي لجأ إلى تحريض أمراء الملك العزيز عثمان على تركهِ، وعندما وجدَ نفسه وحيداً اضطر إلى العودة إلى مصر، ليتم الاتفاق بين الأمراء على أن يأخذ السلطان الأفضل علي مصر ويترك دمشق للملك العادل أحمد، ولتنفيذ ذلك سيطر السلطان الأفضل علي والملك العادل أحمد على بيت المقدس، وتوجهت جيوشهما نحو مصر لعزل الملك العزيز عثمان، ولكن الملك العادل أحمد خشي من السلطان الأفضل علي بعدم وفائهِ لتعهداته فانسحب، بعد أن راسل الملك العزيز عثمان سراً يطلب منه الثبات[4].

1- طبرية: فتحت على يد شرحبيل بن حسنة في سنة (13هـ / 634م) صلحاً على أنصاف منازلهم وكنائسهم، وهي بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية، وهي في طرف جبل وجبل مطل عليها، وهي من أعمال الأردن في طرف الغور. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص17.

2- جبلة: قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية، أنشأ معاوية جبلة وكانت حصناً للروم رحلوا عنه عند فتح المسلمين حمص. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص105.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص234؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص663؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص473.

4- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص239_240؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص668_669؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص474.

عادَ السلطان الأفضل علي إلى دمشق دون سيطرته على مصر، وبقي الملك العزيز عثمان في مصر دون سيطرته على دمشق، في حين جعل الملك العادل أحمد نفسه حكماً بين أبناء صلاح الدين، الأمر الذي مكنهُ من فرض كلمته على جميع أمراء البيت الأيوبي، في حين ضج الناس في دمشق من سوء حكم السلطان الأفضل علي الذي ترك هذه المرة كافة شؤون الحكم لوزيره ضياء الدين بن الأثير[1].

عندما وجدَ الملك العادل أحمد أن الظروف مناسبة لعزل السلطان الأفضل علي، اتجه إلى الملك العزيز عثمان في مصر، واتفقا على تحقيق ذلك، ثم خرج الاثنان من مصر في (رجب سنة 592هـ / حزيران 1196م)، قاصدين دمشق[2]، وسرعان ما أصبحت دمشق بين أيديهما، فحل الملك العادل أحمد بدلاً من السلطان الأفضل علي في حكم دمشق، في حين أخذ الملك العزيز عثمان لقب السلطنة، وبقيت مصر وبيت المقدس له، أما السلطان الأفضل فقد تركت له مدينة صرخد في إقليم حوران ليقيم فيها[3].

2_ السلطان العزيز عماد الدين عثمان (592_595هـ / 1196_1198م):

كان السلطان العزيز عثمان أول حاكم من بني أيوب يولد على أرض مصر ويتولى حكمها، وقد أشارت المصادر المعاصرة باستقامة السلطان العزيز عثمان، وصلاح حكمه، وعدله حتى وصفهُ ابن خلكان بأنه "كان ملكاً مباركاً، كثير الخير، واسع الكرم، محسناً إلى الناس"[4].

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص241_242؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص669،671؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص474؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص77.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص243؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص671؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص476.

3- ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص671؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج3، ص119.

4- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص78.

استمرت مصر في أيام السلطان العزيز عثمان تمثل قلب الدولة الأيوبية، إلا أن أحوالها الاقتصادية تأثرت إلى حد كبير بسبب انخفاض فيضان النيل في سنة (591_592هـ / 1194_1195م)، مما أدى إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية في مصر[1]، ولم يستطع السلطان العزيز عثمان وضع حد لتلك الأزمة الاقتصادية التي أثرت بشكل خطير على البلاد، لانشغال السلطان العزيز عثمان بالنزاع مع أخيه الملك الأفضل علي، وإن هذا النزاع بين أبناء صلاح الدين بعد وفاته، ساعد على إظهار أهمية دور الملك العادل أحمد، الذي أصبح كبير بني أيوب والحكم بينهم، كما فرضت هذه المكانة عليه مسؤولية كبيرة بالدفاع عن المسلمين ضد أي عدوان صليبي، وفعلاً نهض الملك العادل أحمد بمسؤولياته تجاه العدوان الصليبي في سنة (593هـ / 1197م)، عندما جاء بعض الصليبيين الألمان إلى بلاد الشام، وهاجموا المسلمين في الساحل فأسرع الملك العادل أحمد، فتصدى لهم وانتصر على الصليبيين قرب غزة[2]، ثم استمر بالاستيلاء على يافا[3] في سنة (593هـ / 1197م)[4]، وقد رد الصليبيون على ذلك بالاستيلاء على بيروت في نفس العام، ثم خططوا لاستعادة بيت المقدس، لكن الملك العادل أحمد وبمساعدة السلطان العزيز عثمان أوقفوا الزحف الصليبي وعادت الهدنة بين الطرفين[5]، ولم يكد يتم الصلح بين المسلمين والصليبيين، حتى

1- ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص675.

2- غزة: موضع بديار جذام من مشارف الشام على ساحل البحر وبها قبر هشام بن عبد مناف. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص363.

3- يافا: بينها وبين بيت المقدس مرحلتان، وقد تقدم ذكرها في مقدمة ابن حمل الضأن الذي يفتح الشام ويضرب برواقه على تل يافا. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص615.

4- ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص676_677؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص476.

5- ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص677؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص477.

مرت الدولة الأيوبية بعدة تطورات ونزاعات انتهت بإعادة الوحدة لها مرة أخرى تحت زعامة الملك العادل أحمد.

3_ السلطان المنصور محمد بن عثمان (595_597هـ / 1198_1201م):

ففي أواخر (صفر سنة 595هـ / كانون الأول 1198م)، توفي السلطان العزيز عثمان، وكان ابنهُ الأكبر ناصر الدين محمد الملقب بالملك المنصور في العاشرة من عمرهِ، حاول صاحب النفوذ في مصر، الأمير فخر الدين جهاركس[1]، أن يستدعي الملك العادل أحمد لحكم البلاد، لكن المماليك الأسدية وقفت في وجهه، واستدعت الملك الأفضل علي من حوران، وسلموه مقاليد الأمور في مصر في (ربيع الأول سنة 595هـ / كانون الثاني 1199م)، ولم يبق للسلطان المنصور محمد إلا السلطة الاسمية، فقد استغل الملك الأفضل علي في مصر مع الملك الظاهر غازي في حلب انشغال عمهم الملك العادل أحمد في محاصرة ماردين[2] في ديار بكر لأخذ دمشق[3]، في حين ساندت المماليك الناصرية الملك العادل أحمد[4].

1- فخر الدين جهاركس: هو من أكابر صلاح الدين الأيوبي ومقدم الجند الناصرية والحاكم بالديار المصرية أيام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين توفي سنة (608هـ / 1211م) بدمشق ودفن بها. المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص562_563.

2- ماردين: مدينة من ديار ربيعة بعمل الموصل، بينها وبين دارا نصف مرحلة، وهي في سفح جبل ولها قلعة كبيرة شهيرة. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص518.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص255_256؛ المنصوري (بيبرس بن عبد الله، ت 725هـ / 1325م): مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ، تح: عبد الحميد صالح، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1993م، ص5؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص363_364؛ هاملتون: صلاح الدين الأيوبي، ص206.

4- العبادي (أحمد مختار): تاريخ الأيوبيين والمماليك، بيروت، دار النهضة العربية، 1995م، ص70.

بعد سماع العادل باتفاق أولاد أخيه، لأخذ دمشق منهُ عاد مسرعاً من الجزيرة لدمشق في (شعبان سنة 595هـ / حزيران 1199م)، وبدأ يجهز وسائل الدفاع في المدينة، ولم ينته حتى وصلا لحصار دمشق الذي دام ستة أشهر، استطاع الملك العادل أحمد جذب أمرائهم إلى جانبه وبث الخلاف بينهما، حتى انتهى الحصار في أواخر(صفر سنة 596هـ / كانون الأول 1199م)، بعودة الملك الأفضل علي إلى مصر والملك الظاهر غازي إلى حلب[1]، لكن الملك العادل أحمد تتبع الأفضل علي في طريقه إلى مصر وأنزل الهزيمة به، وأعادهُ إلى إقطاعهِ المتواضع في حوران وهكذا أصبحت مصر للملك العادل أحمد سنة (596هـ / 1200م)[2].

وفي العام التالي اتفق الملك الظاهر غازي والملك الأفضل علي مرة أخرى ضد عمهما الملك العادل أحمد، وتوجها إلى دمشق للسيطرة عليها، فأسرع الملك العادل أحمد من مصر واستطاع بث بذور الخلاف بينهما، فافترقا وعاد الملك الظاهر غازي إلى حلب بعد اعترافه بسيادة عمه، أما الملك الأفضل علي فخصص له عمه سمسياط[3] فقط معاقبةً له[4]، وهنا قام الملك الظاهر غازي بتعزيز موقعه في حلب

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص257_258؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص692،686؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص478.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص265_266؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص693؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص479.

3- سمسياط: بلد من بلاد العجم، منها السمسياطي الرجل الموصوف بالورع والزهد. وهي مدينة صغيرة مطلة على الفرات شرقي جبل اللكام وهي محاطة بالجبال وكثيرة الفواكه ولها قلعة حصينة. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص323؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج1، ق2، ص191.

4- ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص704_705؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص81.

بأعمال التحصينات التي قام بها، وأبرزها إعادة بناء سور قلعة حلب والقلعة المنيعة، وتعمير الحصون الحدودية في قلعة نجم[1] على نهر الفرات وأفاميا على العاصي[2].

4_ السلطان العادل أحمد أبي بكر (595_615هـ / 1201_1218م):

وبهذا الاعتراف صار العادل سلطان البلاد جميعها وبيده ملك مصر وبيت المقدس ودمشق والجزيرة، ونجح السلطان العادل أبي بكر في إعادة الوحدة للدولة الأيوبية من جديد، كما أنه أعاد تنظيم دولته، فاستعان بأبنائه في الحُكم، فجعلَ الملك الكامل محمد في مصر، والملك المعظم عيسى في دمشق، والملك الأشرف موسى في حران[3]، والملك الأوحد نجم الدين أيوب ميافارقين، أما السلطان العادل أبي بكر فاتخذ مهمة الإشراف العام على جميع أنحاء الدولة[4].

اهتم السلطان العادل أبي بكر بتنشيط ورعاية التجارة، وبخاصة مع الدويلات الإيطالية، وكانت غايته من وراء ذلك زيادة ايراداته الخاصة وإمكانياته الحربية من جهة، وإيقاف تلك الولايات عن محاولة تقديم الدعم لحملات صليبية محتملة، وقد بلغ عدد تجار البندقية وبيزا حوالي ثلاثة آلاف تاجر، كما عقد عدة اتفاقيات هدنة مع مملكة الفرنجة الصليبية لكي يعيد تنظيم دفاعاته الحربية[5].

1- قلعة نجم: وهي مركز ناحية في منطقة منبج تابعة لحلب. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج1، ق2، ص10.

2- هاملتون: صلاح الدين الأيوبي، ص208.

3- حران: هي مدينة عظيمة مشهورة، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومين، وهي على الطريق بين الموصل والشام. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص235.

4- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص394؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص73؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص479.

5- هاملتون: صلاح الدين الأيوبي، ص208.

أ_ الحملة الصليبية الرابعة:

لقد أدرك الصليبيون منذ بداية وجودهم ببلاد الشام في (القرن الخامس الهجري / أواخر القرن الحادي عشر الميلادي) أهمية مصر في استمرار وجودهم واستقرارهم، لذلك عملوا على السيطرة عليها بشكل أو بآخر أو بفرض سياستهم عليها، لكن الخطر الأكبر الذي جاءهم هو سيطرة نور الدين محمود[1] عليها من خلال حملات أسد الدين شيركوه، ثم توحيد مصر والشام على يد صلاح الدين، كان العامل الأساسي في انتصار صلاح الدين في موقعة حطين[2] من خلال المخزون الاستراتيجي الذي قدمته مصر، لذلك تعالت الدعوات لحملة صليبية على مصر فكانت الحملة الصليبية الرابعة لكنها غيرت وجهتها نحو القسطنطينية.

أحس الصليبيون والغرب الأوربي بالقلق والخطر، نتيجة جهود السلطان العادل أبي بكر في توحيد الجبهة الإسلامية، مدركينَ أهمية مصر والتي اتخذها الأيوبيون قاعدة كبرى لدعم نشاطهم الخارجي والداخلي، لذلك ظهرت دعوة في الغرب الأوربي (القرن السابع الهجري / أوائل القرن الثالث عشر الميلادي)، لإرسال حملة كبيرة ضد مصر، وقد عرفت هذه الحملة باسم الحملة الصليبية الرابعة، والتي انحرف سيرها إلى القسطنطينية بدلاً من مصر، وفي نهاية سنة (599هـ / 1203م)، وصل ثلاثمائة

1- نور الدين: هو محمود بن زنكي الملقب بالملك العادل ملك الشام وديار بكر والجزيرة ومصر، ولدَ في حلب سنة (511هـ / 1118م)، واهتم بالجهاد ضد الصليبيين، نشر العدل في بلاد الشام، ومنح عرب البادية إقطاعات لئلا يتعرضون للحجاج واهتم بالعمارة العسكرية والمدنية. أبو الفدا (إسماعيل بن علي، ت 732هـ / 1332م): التبر المسبوك في تواريخ الملوك، تح: محمد زينهم محمد عزب، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 1995م، ص63.

2- حطين: قرية بين أرسوف وقيسارية، كان صلاح الدين قد أوقع بالإفرنج في منتصف (ربيع الأخر سنة 583هـ / حزيران 1187م) وقعة عظيمة منكره ظفر فيها بملوك الإفرنج ظفراُ. الحموي: معجم البلدان: ج2، ص273_274.

فارس من الفلمنكيين إلى عكا[1]، وطلبوا من الملك عموري الثاني البدء فوراً بالزحف نحو المسلمين، لكنه رد عليهم بأن الحماسة وحدها لا تكفي، ولا يجب خرق الهدنة مع المسلمين حتى ضمان وصول قوة فعالة تحقق الانتصار[2]، حيثُ تم تجديد الهدنة لمدة ست سنوات في سنة (606هـ / 1204م)[3]، على الرغم من قيام المسلمين ببعض الخروقات الفردية، كذلك فعل الصليبيون، يبدو أن السلطان العادل أبي بكر في تلك الفترة اتبع سياسة التسامح مع الصليبيين، على بعض الخروقات التي قاموا بها، رغبة منه في عدم إشعال نار الحرب بين الطرفين، ففي سنة (603هـ / 1206م)، قام الإسبتارية في حصن الأكراد[4] بالإغارة على مدينة حمص، في الوقت الذي استولى فيه قراصنة قبرص[5]، سنة (604هـ / 1204م)، على عدة سفن إسلامية[6]، ولما انتهت الهدنة مع الفرنجة، أغار الصليبيون على بيسان والتي كان بها السلطان العادل أبي بكر وولده الملك المعظم عيسى، فتراجعا لدمشق، حيث عاث الفرنجة خراباً فيها ليعودوا إلى عكا[7].

1- عكا: مدينة قديمة من ثغور الشام واسعة بينها وبين طبرية يومان وهي قاعدة مدن الافرنج بالشام. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص410.

2- قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص479؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص82.

3- ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص729؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج3، ص120؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص480.

4- حصن الأكراد: حصن منيع يقع على الجبل المقابل لحمص من جهة الغرب بين بعلبك وحمص. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص264.

5- قبرص: جزيرة على البحر الشامي كبيرة القطر وبها ومزارع وجبال وأشجار وزروع ومواشي. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص453.

6- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص291،341؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص750،758.

7- ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص63.

ب_ الحملة الصليبية الخامسة:

تلبية لنداء البابوية بدأت أفواج الفرنج المتحمسين من الغرب الاوربي تأتي إلى بلاد الشام، في الوقت الذي كان ملك بيت المقدس حنا دي برين في عكا قد اقتنع بفكرة غزو مصر، كانت خطتهُ هي سلوك طريق الإسكندرية[1] أو دمياط[2] عن طريق البحر، وأيده في ذلك صليبيي بلاد الشام، وعلى رأسهم الإسبتارية[3] والداوية[4]، إضافةً

1- الإسكندرية: مدينة عظيمة من ديار مصر بناها الاسكندر بن فيلبش فنسبت اليه وهي على ساحل البحر المتوسط، والإسكندرية تعجب كل من رأها ببهجتها وحسن منظرها وارتفاع مبانيها واتقانها، واسعة طرقاتها. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص54، 56.

2- دمياط: مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل مخصوصة بالهواء الطيب وعمل الثياب، وهي من ثغور الإسلام. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص472

2_ الإسبتارية: هو الاسم الذي أطلقه المؤرخون المسلمون على جمعية فرسان الهسبتاليين، وقد أسسها بليسيد جيرار بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس لمهمة مداواة المرضى ثم تحولت لهيئة حربية دينية، كانت هذه المنظمة موجودة في القدس قبل قيام الحروب الصليبية، لتقديم العلاج للحجاج، وهذه الطائفة ما تزال موجودة إلى الآن. أبو شامة (عبد الحمن بن إسماعيل، ت 665هـ / 1267م): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: محمد حلمى محمد أحمد، مر: محمد مصطفى زيادة، 2 جزء، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ط2، 1998م، ج1، ق1، ص284؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج1، ق2، ص414؛ زكار (سهيل)، جوني (وفاء)، إسماعيل (اكتمال): حروب الفرنجة الصليبية، جامعة دمشق، منشورات جامعة دمشق، ط3، 2000م، ص223.

4- الداوية: هو الاسم الذي أطلقه المؤرخون المسلمون على جمعية فرسان المعبد، وقد أسسها صونج دي بين لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس ثم تحولت لهيئة حربية دينية، وكان لها أثر بالغ الخطورة خلال قرني الحروب الصليبية في

لصليبيي قبرص[1]، بعد انتهاء الاستعدادات ترك الملك حنا دي برين حامية قوية في عكا للدفاع عنها من أي هجوم مفاجئ، ثم انطلق على رأس الأسطول الصليبي متجهاً إلى دمياط في أواخر (صفر سنة 615هـ / حزيران 1218م)[2]، وقد نزل الصليبيون على الضفة الغربية لنهر النيل المواجهة لمدينة دمياط، فوجدوا المدينة محصنة تحصيناً قوياً، بينما وضعَ بعرض مجرى النيل مآصر وهي سلاسل ضخمة من الحديد تمنع دون دخول السفن المعادية من البحر إلى داخل مجرى النهر[3]، إضافة لوجود برج السلسلة، وهو بمثابة حصن بناه المسلمون وسط مجرى النهر عند مصبه، لحماية دمياط ودفع أي عدوان عنها[4].

عند وصول الخبر للملك الكامل محمد _الذي كان ينوب عن والده السلطان العادل أبي بكر في حكم مصر_ بنزول الصليبين في دمياط، أسرع على رأس جنده، ونصب معسكره جنوبي دمياط، ومنذ ذلك الحين أطلق على ذلك المكان اسم العادلية، واختار الموقع لكي يكون على اتصال بالمدينة من ناحية ويمنع الصليبين من العبور إلى

المشرق، وكان له أثر في أوربة، وتمت تصفيتها في (القرن الثامن الهجري / مطلع القرن الرابع عشر الميلادي) من قبل ملك فرنسا فيليب الجميل. أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق1، ص284؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج1، ق2، ص414؛ زكار، جوني، إسماعيل: حروب الفرنجة الصليبية، ص223.

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص373_374؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص86.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص374؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص485؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص71.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص375؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص485_486؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص87.

4- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص375؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص486؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص88.

ضفتها الثانية من ناحية أخرى، أما السلطان العادل أبي بكر فقد كلف ابنهُ الملك الأشرف موسى بالضغط على الصليبيين في الشام "فسار في عسكره إلى حمص، ودخل بلاد الفرنج ليشغلهم عن محاصرة دمياط"[1].

أدرك الصليبيون خطأ خطتهم، التي أعطت المسلمين فرصة التأهب والاستعداد، وذلك بنزولهم على الضفة الغربية للنيل بدلاً من الضفة الشرقية والتي تقع عليها مدينة دمياط، لذلك استمر الصليبيون ثلاثة أشهر كاملة يهاجمون برج السلسلة حتى تمكنوا في (شوال سنة 615هـ / آب 1218م)، من الاستيلاء على برج السلسلة، وقطع المآصر التي كانت تعترض مدخل النهر[2]، في حين كانت هذه المآصر بمثابة السد المنيع أمام الأعداء تحول دون سقوط مصر، ويذكر أن السلطان العادل أبي بكر لم يحتمل سماع تلك الأخبار السيئة حيث كان في طريقه إلى مصر، فمرض أشد المرض، ثم لم يلبث أن توفي بعد عدة أيام بالقرب من دمشق في (7 جمادى الآخرة سنة 615هـ / نهاية شهر آب 1218م)[3].

5_ السلطان الكامل محمد (615_635هـ / 1218_1238م):

تسلم الملك الكامل محمد مصر أيام أبيه السلطان العادل أبي بكر كنائب عنه فيها، وبعد وفاته أصبح سلطانها ومد سلطانه على بقية الدولة الأيوبية[4]، وبخاصة بعد الانتهاء من الحملة الصليبية الخامسة ومن المؤامرة التي أحيطت به.

1- المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص603؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص486؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص88.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص375؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص70؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص486؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص71.

3- ابن العميد (المكين جرجس، ت 671هـ / 1273م): أخبار الأيوبيين، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، 2010م، ص8؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص71؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص71.

4- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص10.

أدرك أبناء السلطان العادل أبي بكر في مصر والشام أن الخطر يهددهم ويهدد المسلمين جميعاً، ولو تمكن الصليبيون من السيطرة على مصر فإنهم سيسيطرون على الشام، لذلك أجمعوا على التصدي للصليبيين في مصر ومهاجمتهم في الشام للضغط عليهم، فكانت الخطوة الأولى التي قام بها السلطان الكامل محمد لإيقاف تقدمهم هي سد مجرى نهر النيل حتى لا يتمكنوا من التوغل إلى داخل البلاد، لذلك عمل على إقامة جسر ضخم بعرض المجرى، لكن الصليبيين قطعوا ذلك الجسر، فعمل على جلب عدة مراكب كبيرة وأغرقها بعرض المجرى ليعوق تقدم الصليبيين[1]، إلا أن الصليبيون استطاعوا حفر مجرى وتخطي تلك العقبة، وبذلك استطاعت السفن الصليبية أن تدخل النهر حتى موضع مقابل لمنزلة العادلية حيث كان معسكر السلطان الكامل محمد، فأصبح الجيشان مقابل بعضهما البعض[2]، بعد وصول أخبار انتصاراتهم في مصر تشجع الصليبيون في عكا على مهاجمة المراكز الإسلامية قرب عكا، حيث تصدى لهم المسلمون، كما رد الملك المعظم عيسى على ذلك بالخروج من دمشق واقتحام قيسارية[3] وهدمها، في حين أغار الملك الأشرف موسى على إمارة طرابلس[4] الصليبية[5]، كما قام المعظم عيسى سنة (616هـ / 1219م)، بهدم عدة حصون قوية

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص376؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص89.

2- قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص486؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص72.

3- قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام تعد من أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية مسافة ثلاثة أيام. فتحها معاوية في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ (44هـ / 579_644م). ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص208؛ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص486.

4طرابلس: وهي على شاطئ البحر، كثيرة الثمار والخيرات، يحيط بها سور صخري جليل البنيان. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص25.

5- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص90.

في الشام بعد انتصار الصليبيون في دمياط، حتى لا يستفد الصليبيون منها إذا سيطروا عليها، بل قام بهدم أبراج وسور مدينة بيت المقدس لكي لا يتحصن بها الصليبيون في حالة الاستيلاء عليها، الأمر الذي أثار حالة من الفوضى بين صفوف المسلمين داخل المدينة وخارجها فهجرها كثير من أهلها خوفاً من الحرب[1].

وفي (جمادى الآخرة سنة 616هـ / أيلول 1219م)، وصلت النجدات الصليبية مما زاد الوضع سوءاً جعل مدينة دمياط أكثر ضيقاً[2]، وزاد من موقف السلطان الكامل محمد سوءاً أن البدو أتوا من سيناء والصحراء الشرقية ليستفيدوا من حالة الفوضى نتيجة الحرب، فأغاروا على القرى ونهبوها "وبالغوا في الإفساد فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج"[3]، ثم ضاعف من خطورة الموقف أنه في سنة (617هـ / 1220م)، أثناء مواجهة الحملة الصليبية الخامسة اجتمع عدد من الأمراء على أن يخلعوا السلطان الكامل محمد من السلطة وتولية أخيه الأصغر الملك الفائز وذلك بقيادة عماد الدين ابن المشطوب[4].

اضطر السلطان الكامل محمد لمواجهة هذه الأخطار بالاستنجاد بأخيه الملك المعظم عيسى، ولكن قبل وصول الملك المعظم عيسى إلى مصر هرب السلطان الكامل محمد ليلاً من المعسكر خوفاً على نفسه من المتآمرين، فتبعهُ الجند مباشرةً، ومع حلول

1- ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص81؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص492.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص378؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص489.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص377؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص74؛ السيد (محمود): تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1998م، ص16.

4- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص376؛ ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص12؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص74؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص605؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص487؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص73.

الصباح وجد الصليبيون المعسكر الإسلامي خالياً، فعبروا إلى الضفة الشرقية للنهر واستولوا على معسكر العادلية وما فيه من ذخائر ثم حاصروا دمياط بحراً وبراً، واستطاعوا دخولها وأسر من فيها بعد حصارها وذلك في (شعبان سنة 618هـ / أيلول 1221م)[1].

كان الموقف في مصر بأسوأ أحواله لولا وصول الملك المعظم عيسى في الوقت المناسب، فاستطاع التخلص من ابن المشطوب والمؤامرة ضد السلطان الكامل محمد، وتم إعادة تنظيم الجيش، وبفضل ذلك تمكنت دمياط من الصمود تسعة أشهر أخرى في وجه الصليبيين[2].

ترافق ذلك وصول نجدات قوية للصليبيين من قبرص وغرب أوربا، فعندما علم السلطان الكامل محمد بذلك لجأ إلى السياسة لإنقاذ البلاد من خلال التفاوض مع الصليبيين وعرض عليهم عرض غير متوقع، وهو استعداده لإحياء مملكة بيت المقدس القديمة وإعادتها للصليبيين إلى ما كانت عليه قبل موقعة حطين سنة (583هـ / 1187م)، باستثناء حصن الكرك الذي يبقى في حوزة المسلمين، وذلك مقابل انسحاب الصليبيين من مصر، وقد قبل بهذا العرض الملك حنا دي براين وأمرائه والفرنج، لكن المندوب البابوي بلاجيوس رفض الموافقة عليه وأيده الرأي كل من الإسبتارية والداوية الذين ظنوا أن امتلاك مصر بات أمراً سهلاً[3].

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص376_377؛ المنصوري: مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ، ص7؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص605؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص487؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص73.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص377؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص488؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص73.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص379؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص106؛ شعيب (علي عبد المنعم): المختصر في تاريخ مصر، بيروت، دار ابن زيدون، ط1، 1934م، ص204؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص489.

كما ظهر خطر جديد يهدد العالم الإسلامي من جهة الشرق هو خطر التتار[1]، إذ استولى جنكيز خان على خوارزم وفارس وبخارى سنة (617هـ / 1220م)[2].

بعد وصول الإمداد اللازم للفرنجة، دب الخلاف بين الصليبيين حول الطريق الذي يسلكونهُ، لكنهم قرروا التوجه نحو القاهرة[3] بمحاذاة نهر النيل في أوائل (جمادى الأولى سنة 618هـ / تموز 1221م)[4]، في حين بذل الأيوبيون في تلك اللحظات الخطيرة كل ما أمكنهم لإنقاذ مصر وجمعوا المتطوعين والمقاتلين، حيث أقام السلطان الكامل محمد منزلة على الضفة الشرقية للنيل، أطلق عليها اسم المنصورة تيمناً بانتصاره[5]، وفي أواخر (جمادى الآخرة سنة 618هـ / تموز 1221م)، اجتمع الأخوة الثلاثة السلطان الكامل محمد والملك المعظم عيسى والملك الأشرف موسى في المنصورة، على رأس جيوشهم استعداداً للمعركة الفاصلة ضد الصليبيين، مع استمرار عرض السلطان الكامل محمد بإحياء مملكة بيت المقدس مقابل خروجهم من مصر، لكنهم رفضوا ذلك، وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضاً عن تخريب سور القدس وطالبوا

1- التتار: أطلق الصينيون اسم التتار على الشعوب البدائية التي كانت تعيش في شمال أسوارهم والتتار خليط من الشعوب التركية والمغولية، أما الغرب فقد أطلق اسم التتار على المحاربين من المغول والترك الذين قاتلوا مع جنكيز خان. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج1، ق2، ص49.

2- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص8؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص88_90.

3- القاهرة: قاعدة الملوك المصريين ودار ملكهم في البلاد المصرية، وقد بناها العبيدين الشيعة الذين كانوا بها، وهي مدينة كبيرة بناها جوهر الصقلي سنة (358هـ / 969م)، في عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله (319_365هـ / 931_975م). الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص450.

4- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص93.

5- المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص607؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص73.

بالكرك والشوبك[1]، ولكن اختلاف الصليبيين وجهلهم في حال البلاد الجغرافية حالا دون انتصارهم[2].

عند وصول الصليبيون إلى نقطة البحر الصغير "أشموم طناح" من فرع دمياط، والذي يمثل رأس مثلث محاط بالماء من ثلاث جهات، قطع المسلمون السدود في الوقت الذي كان فيه نهر النيل مليء بماء الفيضان، لم يشعر الصليبيون إلا وقد غاصوا بالوحل وغرقت الأرض تحت أقدامهم ولم يبق أمامهم سوى ممر ضيق يمكنهم العودة من خلاله إلى دمياط[3]، لكن السلطان الكامل محمد قد وضع خلفهم ألفي فارس ليقطعوا على الصليبيين خط الرجعة أمامهم[4]، وبينما يهمون بالفرار ليلاً انقض عليهم المسلمون من كل جانب وأخذوا يحصدونهم حصداً، ثم أمر السلطان الكامل محمد أن يكفوا عنهم[5]، فلاذوا إلى طلب الصلح وبعثوا إلى السلطان الكامل محمد يطلبون الأمان الأمان لأنفسهم وأنهم يسلمون دمياط دون قيد أو شرط، قبل السلطان هذا العرض في حين كان بمقدوره إبادتهم[6]، لكن حرصه على إنقاذ مصر وتسامحه وافق على عقد هدنة معهم، واشترط السلطان الكامل محمد على الصليبيين إرسال عدد من ملوكهم إليه كرهائن لضمان خروج الصليبيين من دمياط، فوافق الصليبيون على ذلك وأرسلوا

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص379؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص608؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص493.

2- شعيب: المختصر في تاريخ مصر، ص204.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص379؛ المنصوري: مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ، ص7؛ شعيب: المختصر في تاريخ مصر، ص204.

4- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص95.

5- شعيب: المختصر في تاريخ مصر، ص204.

6- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص380؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص609؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص496؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص74.

عشرين من كبرائهم على رأسهم الملك حنا دي برين والمندوب البابوي، في حين أرسل السلطان الكامل محمد مقابل ذلك ابنهُ الملك نجم الدين أيوب ومعه جماعة من رفاقهِ[1]، وأطلق سراحهم بعد أن عاهدوه على أن يخلوا دمياط ويجلوا عن الديار المصرية، وألا يرفعوا على المسلمين سيفاً لمدة ثماني سنوات، وتم إجلاء الصليبيون عن دمياط في (رجب سنة 618هـ / أيلول 1221م)، ودخلها السلطان الكامل محمد[2].

انتهت الحملة الصليبية الخامسة بالإخفاق، حيث أضاع الصليبيون فرصة استعادة إحياء مملكة بيت المقدس، فاضطروا في النهاية لإنقاذ أرواحهم بالخروج من دمياط.

يعود الفضل في القضاء على خطر الحملة الصليبية الخامسة التي هددت مصر إلى تضامن أبناء السلطان العادل أبي بكر بعد وفاة أبيهم، إلا أن هذا التحالف والتعاون لم يلبث أن انفرط في نهاية سنة (620_621هـ / 1223_1224م)، نتيجة لأطماع الملك المعظم عيسى[3]، وذلك أن الملك المعظم عيسى أراد توسيع دائرة أملاكهِ، ولكنهُ بدلاً من أن يتوسع على حساب الصليبيين بالشام، لجأ إلى التمادي على ممتلكات أخويه وأقربائه، فهاجم حماة الأمر الذي أغضب السلطان الكامل محمد والملك الأشرف موسى لهذا العمل، فأرسل السلطان الكامل محمد إلى أخيه الملك المعظم عيسى يطلب منه الرحيل فرحل عنها مرغماً[4]، مما فتح باب الخلاف بين الأخوة الثلاثة في الوقت

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص380؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص496.

2- المنصوري: مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ، ص7؛ شعيب: المختصر في تاريخ مصر، ص204؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص496؛ هاملتون: صلاح الدين الأيوبي، ص213.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص468؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص99.

4- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص99.

الذي كانوا فيه أحوج إلى الاتحاد فيما بينهم[1]، وذلك أن خطراً جديداً هدد المنطقة كاملة وهو خطر الخوارزمية، وقد ظهر هذا الخطر نتيجة مباشرة لحركة توسع التتار بعد أن دمر جنكيز خان دولة الأتراك الخوارزمية سنة (617_618هـ / 1220_1221م)[2]، واستطاع جلال الدين منكبرتي (595_628هـ / 1199_1231م) من إحياء الدولة الخوارزمية من جديد متخذاً من أصفهان عاصمة له، وبدلاً من أن يعمل على حماية العالم الإسلامي من خطر التتار الوثنيين، قام بمهاجمة الخليفة العباسي الناصر لدين الله (575_622هـ / 1180_1225م) في العراق ودخل بغداد[3] سنة (622هـ / 1225م)، ثم اتجه لمهاجمة إقليم جورجيا، والمجاور لممتلكات الملك الأشرف موسى بن العادل الأيوبي الأمر الذي جعل الأشرف يتوجه إلى دمشق لطلب المساعدة من أخيه الملك المعظم عيسى[4].

على الرغم من تحذير الملك الأشرف موسى لخطر الخوارزمية والتجائه لأخيه لطلب المساعدة، لكن الملك المعظم عيسى استغل فرصة مجيء الملك الأشرف موسى إليه وقبض عليه، لتحقيق أطماعهِ التوسعية على حساب أهل بيته، ولم يطلق سراحهُ إلا بعد أن تعهد لهُ بمساعدته في الاستيلاء على حمص وحماة، ثم مهاجمة السلطان الكامل محمد في مصر، وقد تعهد الملك الأشرف موسى بكل ذلك، ولكنهُ ما كاد يفلت من يد الملك المعظم عيسى حتى أكد تحالفهُ مع أخيه السلطان الكامل محمد وأخبره بكل ما حدث[5].

1- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص100.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص402؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص100.

3- بغداد: أول من جعلها مدينة الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بالله (95_158هـ / 714_775م)، وبغداد جنة الأرض ومدينة الروم ومجمع الرافدين ودار الخلافة العباسية وعين العراق. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص457_461.

4- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص100.

5- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص100.

أ- الحملة الصليبية السادسة:

إلا أن النزاع بين أفراد البيت الأيوبي هذه المرة أخذ منحاً خطيراً، وذلك أن كل من الأخوة استعان بقوى خارجية لمساندته ضد الطرف الآخر، فاستنجد الملك المعظم عيسى بالخوارزمية في حين استنجد السلطان الكامل محمد بالإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا "إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ومملكة الصقيليتين "صقلية ونابولي"، في حين حاصر السلطان جلال الدين منكرتي خلاط مقر حكم الملك الأشرف موسى في (رجب سنة 623هـ / تموز 1226م)، كما أرسل السلطان جلال الدين إلى الملك المعظم عيسى خلعة لبسها وشق بها دمشق وقطع الخطبة للسلطان الكامل محمد[1]، وكان السلطان الكامل محمد قد خشي ازدياد قوة أخيه الملك المعظم عيسى حاكم دمشق، فعقد محالفة مع الإمبراطور فردريك الثاني على أن يتنازل له عن بيت المقدس وعن طريق الحجاج المؤدية إلى عكا ويافا، وأن يطلق سراح الأسرى من الفرنج، وأن يقدم لإمبراطور فردريك الثاني مقابل ذلك مساعدته على رد كل مهاجم ولو كان مسيحياً، وأن يمنع المدد عن الصليبيين الآخرين في الشام مدة عشر سنين ونصف[2].

لم يكد الإمبراطور فردريك الثاني يصل إلى عكا في (شوال سنة 635هـ / أيلول 1228م)، حتى كانت الأمور قد تغيرت بشكل كامل، وذلك أن البابا للمرة الأولى في تاريخ البابوية يتراسل سراً مع المسلمين ملوك بني أيوب وخاصة السلطان الكامل محمد محرضاً إياهم على عدم إعطاء الإمبراطور فردريك الثاني لبيت المقدس، وهكذا أثبتت الأحداث أن المعركة بين البابوية والإمبراطورية كانت في نظر البابا أهم بكثير من المعركة بين الصليبيين والمسلمين في بلاد الشام[3]، ومن ناحية أخرى، فإذا كان الإمبراطور فردريك الثاني قد اعتمد في مجيئه على وعود السلطان الكامل محمد

1- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص14؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج3، ص470.

2- شعيب: المختصر في تاريخ مصر، ص205؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص506.

3- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص105.

بإعطائه بيت المقدس، فإنه ترافق وصوله إلى بلاد الشام بانهيار آماله بسبب التغيرات المفاجئة التي حصلت، ذلك أن الملك المعظم عيسى حاكم دمشق والذي كان السبب في استنجاد السلطان الكامل محمد بالإمبراطور فردريك الثاني قد توفي في أواخر سنة (624هـ / 1227م)، تاركاً ابنهُ الملك الناصر داوود (624_626هـ / 1227_1228م) يخلفهُ في ملكهِ، والذي كان في العشرين من عمره، عديم الخبرة محباً للهو، فسنحت الفرصة للسلطان الكامل محمد والملك الأشرف موسى على اقتسام ممتلكات أخيهما المتوفي الملك المعظم عيسى، أما الملك الناصر داوود فقد أعطاه عمه الكرك والشوبك[1]، وبذلك تكون قد استقرت وهدأت الأوضاع بين أبناء البيت الأيوبي، ولم يعد للسلطان الكامل محمد حاجة لمعونة الإمبراطور القادم من الغرب الأوربي.

يذكر المؤرخون المعاصرون الحيرة التي وقع بها السلطان الكامل محمد في ذلك الوقت، لأن الإمبراطور فردريك الثاني لم يأتِ إلى بلاد الشام إلا بناءً على طلب السلطان نفسهُ، وفي ذلك يذكر المؤرخ المقريزي عن حيرة السلطان الكامل محمد فهو غير قادر على محاربتهِ لوجود اتفاق بينهما فاعتمد المراسلة والملاطفة[2]، في الوقت نفسه وجد السلطان الكامل محمد بأن ليس من مصلحة الدولة الأيوبية أن يصطدم بالصليبيين بالشام في تلك المرحلة وفتح جبهة معهم بسبب الخطر الخوارزمي ومن ورائه خطر التتار[3].

لقد نجح الإمبراطور فردريك الثاني في استعطاف السلطان الكامل محمد، كما طالبه بضرورة الوفاء بعهوده حسب الاتفاق، يضاف إلى ذلك، على الرغم من تذلل الإمبراطور فردريك الثاني وبكائه، إلا أنه لجأ إلى التلويح بالقوة، فقام بتحصين يافا، مما جعل السلطان الكامل يخشى حدوث تحالف صليبي ضد المسلمين، وخاصة أن السلطان

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص473_474؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص106.

2- المقريزي: الخطط المقريزية، ج3، ص471.

3- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص106.

الكامل محمد لم يكن مستعداً لفتح جبهة جديدة لإحاطته بثلاث أخطار، ابن أخيه الملك الناصر داوود من جهة، والصليبيين من جهة أخرى، والخوارزمية التي استعان بها الملك الناصر داوود من جهة ثالثة، حيث وافق السلطان الكامل محمد على عقد اتفاقية يافا مع الإمبراطور فردريك الثاني في (ربيع الأول سنة 626هـ / شباط 1229م)، وتقرر فيها الصلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات، على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة[1] وتبنين وصيدا، وتكون لهم القرى على الطريق من عكا إلى القدس فقط، واشترط المسلمون على أن تبقى بيت المقدس على ما هي عليه، فلا يجدد سورها وأن يكون الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين وتقام الشعائر الإسلامية[2]، كما تعهد الإمبراطور فردريك الثاني بمساعدة السلطان الكامل محمد، ضد أعدائه من المسلمين والمسيحيين، وعدم تزويد صليبي المشرق بأية مساعدة[3].

وهكذا نجحت الحملة الصليبية العجيبة على بيت المقدس التي قادها الإمبراطور فردريك الثاني، وهي الحملة المعروفة بالسادسة، وكان قوامها ستمائة جندي فقط ولم ترق فيها قطرة دم واحدة، وأخذ الإمبراطور فردريك الثاني بيت المقدس بلا ضرب ولا قتال، ودخلها في (ربيع الآخر سنة 627هـ / آذار 1229م)، وقبل أن يغادر

1- الناصرة: قرية بالشام على ثلاثة عشر ميلاً من طبرية، ذكر بعضهم أن فيها ولدَ السيد المسيح عليه السلام وأهل بيت المقدس ينكرون ذلك. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص363.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص481؛ ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص16؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص173؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج3، ص471؛ بيضون (إبراهيم): تاريخ بلاد الشام، بيروت، دار المنتخب العربي، 1995م، ص262.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص481؛ ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص16؛ سيمينوفا: صلاح الدين والمماليك في مصر، ص33.

الإمبراطور فردريك الثاني إلى بلاده تبادل الهدايا مع السلطان الكامل محمد[1]، وقد توج نفسه إمبراطوراً في كنيسة القيامة، ثم عاد إلى عكا، ومنها انصرف عائداً إلى غرب أوربة[2].

بعد عودة الإمبراطور فردريك الثاني إلى غرب أوربا، دخل الصليبيون فترة الضعف والانحلال، بسبب ما نشأ بينهم من خلافات ومنازعات[3]، وعلى الرغم من قدرة الأيوبيين في مواجهة الصليبيين إلا أنهم حرصوا على عدم إثارة حرب معهم بالشام في تلك الفترة، لتخوفهم من الخوارزمية وسلطانهم جلال الدين منكبرتي وذلك لأن الخوارزمية اتبعوا سياسة التتار في التدمير والتخريب للبلاد والعباد، حتى لو كانت تلك البلاد من بلاد المسلمين، فلم يبالغ السلطان الكامل محمد والملوك الأيوبيين بخطر الخوارزمية، حين سيطروا على خلاط في (جمادى الأول سنة 627هـ / نيسان 1230م)، بعد حصارها ستة أشهر، وعندئذ وضعوا السيف في رقاب أهلها[4]، وسبى أهلها وكان من بين الأسرى زوجة الملك الأشرف موسى، فانتهك السلطان جلال الدين منكبرتي عرضها في نفس الليلة التي استولى فيها على المدينة[5].

1- شعيب: المختصر في تاريخ مصر، ص205؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص75.

2- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص109.

3- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص110.

4- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص484؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص111.

5- ابن أيبك الدواداري (أبو بكر بن عبد الله، ت 736هـ / 1336م): كنز الدرر وجامع الغرر _ الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تح: سعيد عاشور، 8 جزء، القاهرة، المعهد الألماني للآثار الإسلامية، 1972م، ج7، ص299؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص111.

أمام خطر الخوارزمية تناسى حكام المسلمين في البلدان المجاورة ما بينهم من خصومات، وتحالف الأيوبيون مع عدوهم السابق سلطان سلاجقة الروم كيقباذ الأول[1] (616_634هـ / 1219_1237م)، ضد جلال الدين الخوارزمي، وقد اجتمعت قوات الأيوبيون تحت زعامة الملك الأشرف موسى مع قوات سلاجقة الروم تحت قيادة السلطان كيقباد الأول وانطلقوا نحو خلاط، ودارت معركة في (رمضان سنة 627هـ / آب 1230م)، حلت الهزيمة الساحقة بالخوارزمية وفر سلطانهم جلال الدين إلى أذربيجان بعد أن فقد كثيراً من رجاله[2]، وهكذا استرد الملك الأشرف موسى خلاط، وبعد فترة تم الصلح بينه وبين السلطان جلال الدين الخوارزمي، لكن بعض الأكراد قاموا بقتل السلطان جلال الدين سنة (629هـ / 1231م)، فتمزقت دولته، وانتشرت جموع الخوارزمية في عدد من بلاد المشرق يعرضون خدماتهم على من يرغب شرائها من حكام المسلمين[3].

إلا أن القلق والخوف استمر مع الأيوبيين في الشام ومصر، ذلك لأن التتار استولوا على ممتلكات الخوارزمية، وبذلك أصبحت أنظارهم متوجهة نحو غزو العراق وممتلكات الأيوبيين في الجزيرة وسلاجقة الروم في أسيا الصغرى[4]، فمن الطبيعي أمام هذا الخطر أن يتحالف كل من الأيوبيين مع سلاجقة أسيا الصغرى لصد المغول، مثلما

1- علاء الدين كيقباذ: سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان السلجوقي تزوج من ابنة الملك العادل الأيوبي توفي في (7 شوال سنة 634هـ / 2 حزيران 1237م). ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج1، ق2، ص196.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص486؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص180_181.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص486؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص112.

4- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص492؛ ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص18؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص184_185.

تحالفوا لصد الخوارزمية، ولكن سلطان سلاجقة الروم السلطان علاء الدين كيقباذ الأول، أراد استغلال الموقف لأخذ خلاط والرها[1] وحران من الأيوبيين[2]، ومع ظهور نوايا السلاجقة جمع السلطان الكامل محمد حوله القوى الأيوبية في الشام، وزحف لمواجهة أطماع سلاجقة الروم في آسيا الصغرى سنة (631هـ / 1234م)، إلا أن ملوك بني أيوب خافوا من ازدياد نفوذ السلطان الكامل محمد، وخصوصاً إذ تغلب على سلاجقة الروم، فسيتمكن من القضاء عليهم جميعاً، لذلك تأمروا على السلطان الكامل محمد، وراسلوا في الخفاء سلطان سلاجقة الروم علاء الدين يؤكدون له وقوفهم إلى جانبه ضد السلطان الكامل محمد، وهكذا انتهى الموقف بعودة السلطان الكامل محمد من حيث أتى، في حين استولى السلاجقة على حران وخلاط والرها سنة (632هـ / 1235م)[3]، لكن السلطان الكامل محمد استطاع في سنة (633هـ / 1235م)، استعادة تلك المناطق وأضافها لممتلكاته، فأصبحت آمد وجميع حصونها وممالكها وحران والرها وحصن كيفا تابعة له، وعين عليها ابنه الملك الصالح نجم الدين[4].

لم ينحصر الصراع والانقسام في البيت الأيوبي على ما حدث أثناء مواجهتهم لسلاجقة الروم، بل سرعان ما أعلن حاكم دمشق الملك الأشرف موسى العصيان على أخيه الأكبر السلطان الكامل محمد الموجود في مصر، مستعيناً في ذلك الوقت بحاكم

1- الرها: مدينة من أرض الجزيرة متصلة بحران، وهي مدينة ذات عيون كثيرة عجيبة تجري منها الأنهار وبينها وبين حران ستة فراسخ والرها مدينة روحية عليها سور من حجارة. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص273.

2- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص112.

3- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص19؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج3، ص473.

4- ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج3، ق1، ص81؛ ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص20؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص228؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج3، ص473.

حمص أسد الدين شيركوه والوصية على حلب ضيفه خاتون[1]، ولكن القدر شاء أن يتوفى الملك الأشرف موسى في (محرم سنة 635هـ / آب 1237م)، قبل أن تشتعل نار الحرب الأهلية بين ملوك البيت الأيوبي، لكن الملك الأشرف موسى قد أوصى قبل وفاته بأن يخلفهُ في ملك دمشق أخوه حاكم بصرى الملك الصالح إسماعيل (635_644هـ / 1238_1246م)، ولم يكد الملك الصالح إسماعيل أن يتسلم زمام الأمور في دمشق حتى أعاد تكوين الحلف المضاد للسلطان الكامل محمد، فاتصل بحاكم حمص المجاهد أسد الدين شيركوه وحاكم حماة الملك المظفر تقي الدين محمود (626_642هـ / 1229_1240م) والوصية على حلب وضيفة خاتون[2]، ليكونوا جميعاً يداً واحدة ضد السلطان الكامل محمد وأن يقتصر سلطانه على مصر فقط[3]، فيما لم يستجب حاكم حماة الملك المظفر محمود، وحاكم الكرك الملك الناصر داوود، أما السلطان الكامل محمد عندما علم بذلك أسرع من مصر وحاصر دمشق واستطاع السيطرة عليها في أوائل سنة (635هـ / 1238م)، وعندئذٍ عاقب الملك الصالح إسماعيل بعزلهِ وإعطائه إقطاعاً صغيراً في بعلبك والبقاع، وبذلك يكون السلطان الكامل محمد قضى على ذلك الحلف في المهد[4]، أما الملك المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني عمل على استمالة عطف السلطان الكامل محمد، فوافق بتقديم ألفي ألف درهم ويعفو عنهُ، وفي هذه السنة طلب الخليفة العباسي المستضيء بالله (623_640هـ / 1226_1242م) من السلطان الكامل تقديم المساعدة بسبب خطر التتار، فأرسل له

1- ضيفة خاتون: بنت العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن نجم الدين أيوب ولدت بقلعة حلب سنة (581هـ / 1185م) تزوجها الظاهر غازي بعد أختها غازية سنة (609هـ / 1212م) ماتت بقلعة حلب سنة (640هـ / 1242م). ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج1، ق2، ص24.

2- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص20_21؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص234.

3- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص116.

4- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص21؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص235.

خمسة ألاف فارس[1]، إلا أن السلطان الكامل محمد توفي بعد فترة قليلة في (رجب سنة 635هـ / آذار 1238م)، بقلعة دمشق بدار الفضة ودفن فيها، وقد أجمع المؤرخين المعاصرون على مدحهِ، بأنه كان ملكاً جليلاً مهيباً حازماً حسن التدبير، فقد كان السلطان الكامل محمد يحسن الإدارة والسياسة، ولا يقصر في عمل، وتقدمت مصر في عهده كثيراً بفضل ما قام به من الأعمال لإصلاح الري وتحسين حال الزراعة، وأتم الكامل بناء قلعة صلاح الدين[2].

6_ السلطان العادل الثاني (635_637هـ / 1238_1240م):

بعد وفاة السلطان الكامل محمد خلفهُ على عرش مصر ابنه الأصغر وهو الملك العادل الثاني وبقي ابنه الأكبر وهو الملك الصالح نجم الدين أيوب على ولايته الفراتية، لأن أم العادل أرادت أن يكون ابنها سلطاناً فكان لها ما أرادت[3]، لكنهُ أبعد أمراء والده وقرابته، وأنشأ له أمراء شباناً وأعطاهم الأموال والإقطاعات، وأقبل على شرب الخمر واللهو، في حين خرجت دمشق عن طاعته، وعندما ضاق الأمر بالملك الجواد يونس مظفر بن مودود نائب دمشق (635_641هـ / 1237_1243م) خاف على نفسه من السلطان العادل الثاني واتصل بالملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب آمد وحصن كيفا لكي يأخذ دمشق، وبالفعل دخل دمشق في سنة (636هـ / 1238م)، ودخل قلعتها[4].

في حين اشتعل الخلاف بين حاكم حمص الملك المجاهد أسد الدين شيركوه وحاكم حماة الملك المظفر الثاني تقي الدين محمود[5]، وقد أدى سيطرت الملك الصالح نجم

1- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص21.

2- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص22؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص236؛ شعيب: المختصر في تاريخ مصر، ص205.

3- العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص76.

4- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص23؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج3، ق1، ص202؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص242؛ شعيب: المختصر في تاريخ مصر، ص205.

5- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص117.

الدين أيوب على دمشق إلى خلاف بينهُ وبين أخيه السلطان العادل الثاني، وفي ذلك النزاع استعان كل طرف بأنصار له من داخل البيت الأيوبي نفسه، فاعتمد السلطان العادل الثاني على الملك المجاهد شيركوه، واعتمد الملك الصالح نجم الدين أيوب على الملك المظفر الثاني تقي الدين، هذا بالإضافة إلى استعانة كل فريق بجموع من خارج البيت الأيوبي من مرتزقة الخوارزمية الذين تفرقوا في البلاد بعد مقتل سلطانهم، ثم حدث في نهاية سنة (637هـ / 1239م)، أن الملك الصالح إسماعيل عم السلطان العادل الصغير والملك الصالح نجم الدين أيوب استطاع استرداد دمشق، والتي كان أخوه السلطان الكامل محمد قد طرده منها[1]، وذلك بعد أن اتفق حاكم بعلبك الملك الصالح إسماعيل مع حاكم حمص المجاهد أسد الدين شيركوه على أخذ دمشق وعملوا الحيلة وأخذوها، فتفرقت عساكر الملك الصالح نجم الدين أيوب عنهُ ولم يبق معهُ سوى جماعة قليلة، فقبض عليه الملك الناصر وسجنهُ في قلعة الكرك، ففرح بذلك السلطان العادل الثاني وأقام الولائم وطلب من الملك الناصر صاحب الكرك أن يرسل لهُ أخيهِ الملك الصالح نجم الدين أيوب في قفص من حديد، وأن يعطيه أربعمائة ألف دينار ويفتح دمشق، فأجابهُ الملك الناصر أنهُ إذا افتتحت دمشق وسلمها لهُ يعطيهِ مقابل ذلك الملك الصالح نجم الدين أيوب[2].

وافق الملك الصالح نجم الدين أيوب على طلب حاكم الكرك الملك الناصر، الخروج إلى مصر لعزل السلطان العادل الثاني، وذلك وفي سنة (637هـ / 1240م)، مقابل إخراجه من السجن، وعندما علم السلطان العادل الثاني خرج من مصر لمعاقبتهما، وعند بليس أنزل معسكره قاصداً الكرك، لكن اجتمع جميع أمرائه ما عدا الأكراد على

1- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص118.

2- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص25؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص246_247؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص515.

خلعهِ فقبضوا عليه وعزلوه وقتلوه، وتم استدعاء أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ليتسلم زمام الأمور، وبالفعل دخل القاهرة وأصبح سلطاناً[1].

إن هذه الحادثة تظهر لنا مدى تفوق القوة المملوكية على القوة الكردية في الدولة الأيوبية ما جعلهم قادرين على خلع سلطان وإقامة أخر والدور الذي ستقوم به هذه القوة فيما بعد.

7_ السلطان الصالح نجم الدين أيوب (637_647هـ / 1240_1249م):

لقد اهتم السلطان الصالح نجم الدين أيوب منذ توليه عرش مصر بالإكثار من شراء المماليك الأتراك إلى درجة لم يبلغها غيره من أهل بيته حتى صار معظم جيشه منهم وأسكنهم معهُ في قلعة الروضة[2]، وربما يعود ذلك إلى خوفه من اجتماع ملوك الأيوبيين ضده أو من أي خطر خارجي صليبي أو من قبل التتار والخوارزمية.

لقد أدى اشتداد النزاع والصراع بين أفراد البيت الأيوبي إلى إصابة الشام بحالة فوضى نتيجة صراع الملك الصالح نجم الدين أيوب مع عمه حاكم دمشق الملك الصالح إسماعيل والذي شارك فيه ملوك حمص وحماه والكرك كما تم ذكرهُ سابقاً.

ترافق ذلك إلى إرسال البابوية لحملة صليبية جديدة مع نهاية الصلح الذي عقده السلطان الكامل محمد مع الإمبراطور فردريك الثاني، وقد وصلت هذه الحملة في مطلع سنة (637هـ / 1239م)، وعلى رأسها أمير شامبنى ثيبوت الرابع، ويؤخذ على هذه الحملة أن زعمائها افتقروا تماماً إلى المرونة السياسية التي ميزت الملك ريتشارد قلب الأسد والإمبراطور فردريك الثاني، وهكذا لم يستفد الأمير ثيبوت الرابع من حالة الفوضى والنزاع بين ملوك البيت الأيوبي، واتبع سياسة أدت إلى إخفاق حملتهِ في النهاية[3]، وعندما علم الملك الناصر داوود بنزول الصليبيين في عكا سنة (637هـ / 1239م)،

1- ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص247_248؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص75.

2- المقريزي: الخطط المقريزية، ج3، ص122؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص76.

3- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص118.

أخذ بيت المقدس بحجة أن الصليبيين عمروا المدينة وحصنوها وبذلك نقضوا شروط الصلح مع المسلمين[1]، ومما لا شك فيه بأن ذلك كان صدمة قوية للصليبيين، فقرروا أن يتجهوا إلى عسقلان للاستيلاء عليها ومنها إلى دمشق بوصفها مركز الحركة الإسلامية في بلاد الشام[2]، ومع اتجاه الصليبيين من عكا إلى عسقلان بادر السلطان العادل الثاني الصغير الذي كان لا يزال سلطاناً قبل عزله إلى إرسال قوات استطاعت إنزال هزيمة بالصليبيين قرب غزة وسيق كثير منهم أسرى إلى القاهرة[3].

ففي صيف سنة (637هـ / 1240م)، حصلت المؤامرة التي انتهت بعزل السلطان العادل الثاني من الحكم، وقيام أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب بالسلطنة كما تم ذكرهُ سابقاً، مما أدى إلى استياء حاكم دمشق الملك الصالح إسماعيل، ولا سيما أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب أراد مكافأة حليفهُ حاكم الكرك الناصر داوود، فلم يجد الملك الصالح إسماعيل سوى الاستعانة بالصليبيين ومحالفتهم ضد السلطان الصالح نجم الدين أيوب في مصر، وحاكم الكرك الملك الناصر داوود، وفي مقابل ذلك تعهد لهم بإعطائهم بيت المقدس، ولكي يثبت صدق نواياه قام بتسليمهم القدس وطبرية وعسقلان، فضلاً عن عدد أخر من قلاع الشام التي كانت بأيدي المسلمين[4]، وقرر الطرفان التوجه نحو مصر فتوجه حاكم دمشق الملك الصالح إسماعيل وحاكم حمص الملك المنصور ناصر الدين إبراهيم الأيوبي (600_622هـ / 1204_1246م) الذي خلف أباه المجاهد شيركوه الثاني على رأس جيوشهما مع الصليبيين لغزو مصر، لكن القوات الشامية التابعة للملك الصالح إسماعيل والملك المنصور إبراهيم، لم تقبل فكرة طعن إخوانهم المسلمين، فلم تكد تصل هذه القوات إلى غزة حتى انضمت إلى الجانب المصري ليتعاون الجميع في ضرب الصليبيين، وهكذا حلت الهزيمة بالصليبيين فقتل

1- عاشور (سعيد): الحركة الصليبية، 2 جزء، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط4، 1986م، ج2، ص817.

2- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص119.

3- هاملتون: صلاح الدين الأيوبي، ص221.

4- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص119.

منهم عدد كبير، وسيق الأسرى إلى القاهرة، وانسحب الباقون إلى عسقلان حيث عقدوا صلحاً مع السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة (638هـ / 1240م)[1].

نتيجة هذه الهزيمة انسحبت الحملة الصليبية من عكا إلى الغرب الأوربي في (صفر سنة 638هـ / أيلول 1240م)، لكن قوات جديدة وصلت في الشهر التالي بقيادة ريتشارد دي كورنول، وهو أخ ملك إنكلترا هنري الثالث، لكن هذه الحملة لم تقم بعمل حربي لأنها صغيرة عدا تحصين عسقلان ليتخذها الصليبيون قاعدة لصد أي هجوم من ناحية مصر[2]، واستطاع ريتشارد دي كورنول الحصول من السلطان الصالح نجم الدين أيوب على اعتراف بملكية الصليبيين الحصون التي حصلوا عليها مع بيت المقدس ليعود إلى بلاده في (شوال سنة 638هـ / أيار 1241م)[3].

سرعان ما عاد الخلاف مرة أخرى بين السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وعمه حاكم دمشق الملك الصالح إسماعيل، والذي سانده حاكم الكرك الملك الناصر داوود، وطلبوا من الصليبيين المساعدة ضد السلطان الصالح نجم الدين أيوب في مصر، مقابل إحيائهم مملكة بيت المقدس من جديد[4]، حيث انطلق الملوك الثلاثة الصالح إسماعيل والناصر داوود والمنصور إبراهيم لغزو مصر بمساعدة الصليبيين، وتجمعوا في غزة[5]، أما السلطان الصالح نجم الدين أيوب، فلم يجد قوة يمكنها إنقاذه بشكل مباشر سوى الخوارزمية، فاتصل بهم طالباً المساعدة، فرحوا بهذا الطلب لأنها أتاحت لهم دخول بلاد الشام، واندفع منهم عشرة ألاف في اتجاه دمشق ولما وجدوا هذه المدينة قوية

1- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص33؛ ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج7، ص344؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص274؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص516.

2- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص1039_1040.

3- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص121.

4- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص121.

5- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص824.

التحصين استولوا على طبرية ثم نابلس[1]، ومنها نحو بيت المقدس[2]، في حين لم يكن في بيت المقدس تحصينات أو ملك أو زعيم صليبي يدافع عنها، فاستنجد من فيها بأنطاكية[3] وطرابلس وملك قبرص، ولكن لم يتحرك أحد لإنقاذهم، أما ملوك الأيوبيين بالشام فلم يجرؤوا على التدخل لمنع الخوارزمية من الاستيلاء على بيت المقدس، وإلا تعرضوا إلى نقمة المسلمين جميعاً[4]، وبعد هذا الانتصار استطاع السلطان نجم الدين، أن يمنع الخوارزمية من دخول مصر، وأن يقضي عليهم كما تمكن من إعادة الوحدة للدولة الأيوبية.

هكذا استعادت الدولة الأيوبية وحدتها، وصار السلطان الصالح نجم الدين أيوب يجمع بين يديه القاهرة وبيت المقدس ودمشق، وقد أقام السلطان بدمشق في المدة ما بين (646_647هـ / 1248_1249م)، حيث وفد عليه حاكم حماة، الملك المنصور الثاني سيف الدين محمود الثاني، وملك حمص الأشرف المظفر الدين موسى الثاني، وغيرهما من ملوك بني أيوب بالشام لتقديم فروض الطاعة والولاء كذلك قام الصالح أيوب بزيارة مدينة بيت المقدس بعد أن عادت نهائياً إلى حضن الدولة الإسلامية فقوى تحصينها ودعمها[5].

1- نابلس: من مدن الشام، وهي مدينة السامرية، وبها البئر التي حفرها يعقوب. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص571.

2- شعيب: المختصر في تاريخ مصر، ص205؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص123.

3- أنطاكية: مدينة عظيمة بالشام على ساحل البحر، بناها بطليموس بن هيفلوس الثاني من ملوك اليونانيين. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص38.

4- قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص519.

5- ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج7، ص360؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص280_288، 281.

أ_ الحملة الصليبية السابعة:

نتيجة سقوط بيت المقدس سنة (642هـ / 1244م)، بيد الخوارزمية والفظائع التي ارتكبوها بحق الصليبيين كانت السبب الأساسي في مجيء الحملة الصليبية السابعة بقيادة ملك فرنسا الملك لويس التاسع (610_668هـ / 1214_1270م) على مصر[1].

في الوقت الذي أخذ ملك فرنسا الملك لويس التاسع، يبدأ استعداداته لحملته الصليبية، إذ بأخبار تلك الاستعدادات والحملة تتسرب إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وذلك أن الإمبراطور فردريك الثاني ظل محافظاً على صداقتهِ للسلطان الكامل ومن بعده لابنه السلطان الصالح نجم الدين أيوب، حيثُ أرسل له سفيراً متنكراً بلباس تاجر إلى دمشق ليخبره بتفاصيل الحملة[2].

عندها توجه السلطان الصالح نجم الدين أيوب من دمشق إلى مصر ونزل عند بلدة أشموم طناح وهي تقع جنوب دمياط وقريبة منها، لأنهُ كان مدرك تماماً بأن وجهة الصليبيين الأولى ستكون دمياط، كما أنهُ أمر بتحصين دمياط وتزويدها بالذخائر والأسلحة ووضع فيها حامية من عرب بني كنانة وأرسل جيشاً إليها بقيادة الأمير فخر الدين يوسف وأمره أن ينزل بساحلها الغربي ليمنع نزول الصليبيين إلى الشاطئ[3].

أما الملك لويس التاسع فقد وصل على رأس حملته إلى جزيرة قبرص في (جمادى الأول سنة 646هـ / أيلول 1248م)، حيث قضى بضعة أشهر استراحوا فيها وحصلوا على ما يلزمهم من معلومات عن أحوال المشرق ومن المؤن، وبعد أن استقر رأيهم على التوجه نحو دمياط، أبحروا إليها في (محرم سنة 647هـ / أيار 1249م). وهنا نلاحظ أمرين: الأول هي فكرة الاستيلاء على مصر بوصفها مفتاح بيت المقدس كانت

1- العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص83.

2- المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص610؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص127.

3- المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص611؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص85.

لا تزال تسيطر على عقول الصليبيين، والأمر الثاني هو أن الملك لويس التاسع اتبع أسلوب المغول بإرساله رسائل مليئة بعبارات التهديد والوعيد إلى حكام البلاد التي يعتزم غزوها فيستسلمون دون قتال، فما كاد الملك لويس التاسع يصل إلى دمياط في (أوائل صفر سنة 647هـ / تموز 1249م)، حتى بعث برسالة عنيفة تهديدية إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وعندما تسلم السلطان الصالح نجم الدين أيوب هذه الرسالة وهو مريض، غرقت عيناه بالدموع، ورد على الملك لويس التاسع مذكراً له بانتصارات المسلمين على الصليبيين[1].

في حين استفاد السلطان الصالح نجم الدين أيوب كثيراً من التحذير الذي أرسله الإمبراطور فردريك الثاني لهُ، وأخذ استعداداته كما تم ذكرهُ سابقاً.

وعندما وجدَ الملك لويس التاسع أن دمياط قوية التحصين، بحيث يتعذر النزول على برها، قرر النزول على الضفة الغربية للنيل المواجهة لدمياط، وعلى الرغم من وجود قوات الأمير فخر الدين ووقوفها في وجه الصليبيين، إلا أنها لم تنجح في منعهم من النزول على الشاطئ، وفي ظلام الليل هرب الأمير فخر الدين وقواته إلى الضفة الشرقية حيث تقوم مدينة دمياط[2]، وسرعان ما دخل الرعب على قلوب أهل دمياط، فتركوا مدينتهم هاربين، بعد أن أشعلوا النار في سوقها حتى أن عرب بني كنانة المكلفين بحماية المدينة من قبل السلطان الصالح نجم الدين أيوب، كانوا أول التاركين أبواب دمياط[3]، وهكذا دخلها الفرنج الصليبيين بغير قتال في (صفر سنة 647هـ / تموز 1249م)، واستولوا على ما فيها من مؤن وأسلحة وأموال بعد أن تأكدوا من خلوا

1- ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج7، ص366_368؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص611؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص524_525؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص128.

2- المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص612؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص525؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص129.

3- المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص612؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص129.

المدينة بشكل كامل[1]، لكن الملك لويس التاسع قد أضاع مدة خمسة أشهر كاملة في دمياط دون التقدم إلى قلب البلاد[2]، فإن ذلك أعطى السلطان الصالح نجم الدين أيوب فرصة جيدة للاستعداد وإعادة تنظيم جيشه.

وقد عاقب السلطان الصالح نجم الدين أيوب أمراء بني كنانة لهروبهم من دمياط دون قتال بالشنق، ووبخ الأمير فخر الدين أشد توبيخ، واضطر أمام ذلك الواقع إلى التراجع بمعسكره إلى مدينة المنصورة، حيث اشتد فيه المرض، وقد نزل بالقصر السلطاني على ساحل النيل حيثُ تجمعت السفن الحربية في النيل، وبدأت وفود المتطوعين بالقدوم لمواجهة الخطر القادم[3]، واستطاع وهو على فراش المرض أن يدير شؤون الدفاع[4]، فقد كانت العمليات الحربية في تلك الأثناء مناوشات فردية تهدف إلى أسر عدد من الجنود الصليبيين وإرسالهم إلى القاهرة[5].

بعد أن وصلت الإمدادات إلى الملك لويس التاسع بصحبة أخيه قرر الصليبيون الزحف نحو القاهرة، ولم يكد الجيش الصليبي يتحرك حتى توفي السلطان الصالح نجم الدين أيوب في (15 شعبان سنة 647هـ / 22 تشرين الثاني 1249م)، مما لا شك فيه أن وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب، جاءت في أصعب الظروف في مواجهة الخطر الصليبي[6]، فعملت زوجتهُ شجر الدر بتدبير شؤون الدولة بعد أن أخفت خبر

1- المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص612؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص129_130.

2- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص130.

3- المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص612؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص85.

4- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص130.

5- العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص86؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص130.

6- ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج7، ص370؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص130.

موتهِ لكي لا يصل للصليبيين، وأصدرت الأوامر بما يشبه توقيعهُ، وجمعت قوات الجيش وأرباب الدولة وزعمت بأن السلطان الصالح نجم الدين أيوب يأمرهم بالبيعة لولده الملك تورانشاه ففعلوا ذلك، وفي الوقت نفسه أرسلت إلى ابن زوجها تورانشاه تحثهُ على القدوم من حصن كيفا إلى مصر ليعتلي عرش السلطنة ويواجه الصليبيين[1].

على الرغم من كل الاحتياطات لإخفاء خبر وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب، إلا أن خبر وفاته قد تسرب إلى عامة أهل مصر، وإلى الصليبيين أيضاً، لذلك رأى الملك لويس التاسع أن يسرع بالهجوم ليستفيدوا من تلك الظروف المناسبة وليتمكن من إنزال ضربته بالمسلمين قبل وصول الملك تورانشاه[2].

واستطاع الصليبيون التقدم والوصول إلى مدينة المنصورة وقتل الأمير فخر الدين قائد الجيش الأيوبي ومن دخول المدينة، في الوقت الذي كان هناك قوة جديدة أنقذت الموقف الإسلامي وهي المماليك البحرية، الذين أحاطوا بالصليبيين المنتشرين في دروب المنصورة، وأوسعوهم قتلاً حتى انتهت المعركة بهزيمة الصليبيين وفرار من نجا من القتل[3].

مما لا شك فيه أن موقعة المنصورة أعادت الثقة إلى نفوس المسلمين، فقويت عزائمهم وتطلعوا إلى طرد الصليبيين من مصر، هذا في الوقت الذي حافظ الملك لويس التاسع على ثباته وأخذ يعيد تنظيم صفوف جيشهِ بسرعة، على الرغم من انتشار الحمى بين رجاله[4].

1- ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص305،302؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص614؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص529؛ شعيب: المختصر في تاريخ مصر، ص205؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص86.

2- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص131_132.

3- المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص615_617؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص133.

4- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص846.

8_ السلطان المعظم تورانشاه (647_648هـ / 1249_1250م):

ففي (أواخر ذي القعدة سنة 647هـ / شباط 1250م)، وصل السلطان المعظم تورانشاه إلى المنصورة، بعد أن بويع سلطاناً في دمشق وهو في طريقه إلى القاهرة، وقد أدى وصول السلطان الجديد إلى ارتفاع الروح المعنوية عند المسلمين[1]، فأُعلِنت وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب وسلمتهُ شجرة الدر مقاليد الأمور، وبدأ السلطان الجديد بإدارة المعركة ووضع الخطط، وأمر بقطع طريق الإمداد على الصليبيين، ونقل عدة سفن منفصلة على ظهور الجمال وأنزلها في النيل وراء خطوط الفرنج، وبذلك تمكنت السفن الإسلامية من السيطرة على الكثير من السفن الصليبية المحملة بالمؤون والأقوات وأسر من فيها، ونتج عن ذلك حلول مجاعة كبيرة عند الصليبيين وتفشي العديد من الأمراض والأوبئة، الأمر الذي دفع الملك لويس التاسع لطلب الهدنة وتسليم دمياط مقابل أن يأخذ بيت المقدس، لكن الأيوبيين رفضوا ذلك لمعرفتهم بسوء حالة الصليبيين في مصر[(2)].

بدأ الصليبيون بالهرب في (محرم سنة 648هـ / نيسان 1250م)، ولم يترك المسلمون الصليبيون يهربون بسهولة وإنما تعقبوهم وأنزلوا بهم خسائر كبيرة، وعند منتصف الطريق بين دمياط والمنصورة، قرر المسلمون الهجوم الحاسم عند فارسكور، فوقع الجيش الصليبي بين فكي كماشة وكان مصيرهم إما القتل أو الأسر، ومن بين الأسرى الملك لويس التاسع نفسه وسيق إلى المنصورة وسجن في دار القاضي فخر الدين إبراهيم بن لقمان[(3)].

هكذا وصلت الحملة الصليبية السابعة إلى نهايتها بفضل المماليك القوة الجديدة، وبدأت المفاوضات وكان مطلب السلطان المعظم تورانشاه الحصول على ممتلكات الصليبيين في بلاد الشام لأنه كان على يقين بأن استرداد دمياط صار أمراً مفروغاً

1- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص133.

2- العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص89.

3- المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص618_619؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص91؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص135_136.

منهُ، فأجاب الملك لويس التاسع بأن لا سلطان له على الصليبيين بالشام، فطلب مبلغ ضخم من المال لفداء الجيش الفرنجي على أن يكون الجلاء عن دمياط ثمناً لإطلاق الملك لويس التاسع[1].

إن انتصار المماليك على الصليبيين في المنصورة ثم في فارسكور أدى إلى ازدياد قوة شوكتهم، واعتزازهم بأنفسهم، لاعتقادهم بأنهم أصحاب الفضل في إنقاذ البلاد من الصليبيين[2]، أما المعظم تورانشاه فعمل على إبعاد أقربائه بتقريب غلمانه الذين وصلوا معهُ من المشرق وعزل أمراء والدهِ وأساء إلى المماليك وبدأ يحاول التخلص منهم[3]، بل أن السلطان المعظم تورانشاه لم يحفظ الجميل لزوجة أبيه شجر الدر التي صانت له ملكهُ بعد وفاة أبيه، فأرسل لها يهددها ويطالبها بأموال وجواهر أبيه، فخافت من غدره وكتبت إلى المماليك البحرية تشكو لهم من تصرفاته[4].

لم يكن المماليك البحرية بحاجة إلى مزيد من التحريض ضد السلطان تورانشاه، إن الفارس أقطاي الذي أرسلتهُ شجر الدر لاستدعاء الملك تورانشاه من حصن كيفا، قد وعده بمنحه ولاية الإسكندرية، لكنه تنكر لوعده كما أنه احتجب عن رؤية المماليك، وأخيراً أدرك المماليك البحرية سوء ما يضمر لهم السلطان المعظم تورانشاه عندما رأوه سكران ذات ليلة يجمع الشموع بين يديه، ويضرب رؤوسها بالسيف واحدة بعد أخرى

1- قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص547؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص136.

2- ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج8، ص22؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص180.

3- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص38؛ العريني: المماليك، ص46؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص180.

4- ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج8، ص382؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص620؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص548؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص92_93؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص181.

وهو يردد هكذا أفعل بالبحرية ويسمي أسماء زعمائهم، فقرروا التخلص منه وقتله[1]، وكان من أبرز الأمراء المماليك الذين شاركوا في قتله فارس الدين أقطاي، وبيبرس البندقداري، في صباح يوم الاثنين الموافق(27 محرم سنة 648هـ / أيار 1250م)، بعد أن انتهى السلطان المعظم تورانشاه من طعام إفطاره في خيمته بفارسكور، تقدم إليه بيبرس البندقداري وضربه بسيف فقطع له أصابعهُ، فهرب السلطان تورانشاه إلى البرج الخشبي الذي أقامه على النيل واحتمى بالبرج، فأشعل المماليك النار بالبرج فاضطر أن يرمي نفسهُ في النيل، فلاحقوه بالنشاب حتى غرق، فمات جريحاً حريقاً غريقاً... وبمقتل السلطان المعظم تورانشاه سنة (648هـ / 1250م)، انتهت دولة بني أيوب بعد أن حكموا نحو 81 سنة[2].

نتائج البحث:

من خلال البحث برزت عدة نتائج مهمة سنذكرها فيما يلي:

1_ لقد انشغل أغلب خلفاء صلاح الدين في الصراعات الداخلية على السلطة، هذه الصراعات أضعفت الجبهة الداخلية للأيوبين في مواجهة الصليبين، بل على العكس ذهب بعضهم للاستعانة بالصليبين كمدافع عنهُ

2_ ظهور خطر الخوارزمية القادم من الشرق هدد الدولة الأيوبية.

1- المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص620؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص548؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص92؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص181.

2- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص38؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص620_621؛ أبو الفدا: التبر المسبوك في تواريخ الملوك، ص64؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص305؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص548_549؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص93؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص182.

3_ على الرغم من الصراعات الداخلية إلا أنهُ برز عدة شخصيات من الأيوبيين استطاعة من توحيد الصفوف البيت الأيوبي، ومن مواجهة عدة حملات صليبية منها الرابعة والخامسة والسادسة.

4_ اعتمد أغلب خلفاء صلاح الدين على قوى بشرية جديدة اشتروها لحمايتهم من الصراعات الداخلية ومواجهة الأخطار الخارجية حتى تم استخدامها في بعض الحالات ضمن المدن، هذه القوى عُرفت فيما بعد بالمماليك والتي أخذت دوراً سياسياً وعسكرياً بارزاً فيما بعد وخاصة في مواجهة الحملة الصليبية السابعة على مصر، لتقضي على السلطان الأيوبي تورانشاه وتنهي حكم الدولة الأيوبية ولبيدا عصر جديد عُرف بعصر دولة المماليك.

قائمة المصادر والمراجع

1_ قائمة المصادر العربية:

1_ ابن أيبك الدواداري (أبو بكر بن عبد الله، ت 736هـ / 1336م): كنز الدرر وجامع الغرر _الدر المطلوب في أخبار بني أيوب_، تح: سعيد عاشور، 8 جزء، القاهرة، المعهد الألماني للآثار الإسلامية، 1972م.

2_ ابن تغرى بردى (جمال الدين أبي المحاسن يوسف، ت 874هـ / 1469م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح: محمد حسين شمس الدين، 16 جزء، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1992م.

3_ ابن الأثير (علي بن أحمد، ت 630هـ / 1233م): الكامل في التاريخ، تح: أبو الفداء عبد الله القاضي، مراجعة: مجمد يوسف الدقاق، 11 مجلد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط4، 2003م.

4_ الحموي (ياقوت بن عبد الله، ت 626هـ / 1229م): معجم البلدان، 5 أجزاء، بيروت، دار صادر، 1977م.

5_ الحميري (محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، ت 900هـ / 1495م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، ط2، 1984م.

6- ابن شداد (عز الدين محمود علي بن إبراهيم، ت 684هـ / 1285م): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تح: يحيى زكريا عبارة، 3 أجزاء، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1991م.

7- أبو شامة (عبد الحمن بن إسماعيل، ت 665هـ / 1267م): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: محمد حلمى محمد أحمد، مر: محمد مصطفى زيادة، 2 جزء، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ط2، 1998م.

8- ابن العميد (المكين جرجس، ت 671هـ / 1273م): أخبار الأيوبيين، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، 2010م.

9- أبو الفدا (إسماعيل بن علي، ت 732هـ / 1332م): التبر المسبوك في تواريخ الملوك، تح: محمد زينهم محمد عزب، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 1995م.

10- ابن كثير (إسماعيل بن عمر، ت 774هـ / 1372م): البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة، 21 جزء، دار هجر، ط1، 1998م.

11- المقريزي (أحمد بن علي، ت 845هـ / 1441م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط الآثار المعروف بالخطط المقريزية، تح: محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، 3 جزء، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط1، 1998م.

12- المنصوري (بيبرس بن عبد الله، ت 725هـ / 1325م): مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ، تح: عبد الحميد صالح، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1993م.

2_ قائمة المراجع العربية:

1- بيضون (إبراهيم): تاريخ بلاد الشام، بيروت، دار المنتخب العربي، 1995م.

2- زكار (سهيل)، جوني (وفاء)، إسماعيل (اكتمال): حروب الفرنجة الصليبية، دمشق، منشورات جامعة دمشق، ط3، 2008م.

3- السيد (محمود): تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1998م.

4- شعيب (علي عبد المنعم): المختصر في تاريخ مصر، بيروت، دار ابن زيدون، ط1، 1934.

5- عاشور (سعيد): الحركة الصليبية ،2 جزء، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط4، 1986م.

6- عاشور (سعيد): الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة، دار النهضة العربية، 1996م.

7- العبادي (أحمد مختار): تاريخ الأيوبيين والمماليك، بيروت، دار النهضة العربية، 1995م.

8- العريني (السيد الباز): المماليك، بيروت، دار النهضة العربية، 1967م.

9- قلعجي (قدري): صلاح الدين الأيوبي، بيروت، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، ط1، 1992م.

3_ قائمة المراجع المعربة:

1- **سيمينوفا (ليديا): صلاح الدين والمماليك في مصر، تر: حسن بيومي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 1998م.**

2- **هاملتون (السير. آ. رجب): صلاح الدين الأيوبي، تر: يوسف ايبش، بيروت، بيسان للنشر والاعلام، ط2، 1996م.**